

في وداع الرفاق الأربعة

إدمون عون وعبد مرتضى الحسيني ومي غصوب وجوزيف سماحة

ودعت وودع لبنان في أسبوع واحد على التوالي أربعة مواطنين غير عاديين من رفاقي القدماء والأقل قدماً. أربعة رموز ديمقراطية مضيئة من أهل اليسار. ينتمون إلى جيلين مختلفين في العمر، متباعدين في الزمن في أبعاده المتعددة. اختار كل منهم، على طريقته الخاصة به، انتماءه إلى اليسار في زمانه. واختار كل منهم طريقه الخاص به إلى هذا الانتماء. وحدد كل منهم، وفق منا كان يفتتح به، موقعه الخاص به وموقعه العام في الفكر وفي السياسة وفي الحياة، داخل تحولات العصر الكبرى. إنهم في التسلسل الزمني اليومي للغياب: إدمون عون، مي غصوب، عبد مرتضى الحسيني، جوزيف سماحة.

لن أدخل في التصنيف وفي التوصيف لتحديد مدى حبي وتقديري لهم، بالمفرد وبالجمع، ولا لتحديد علاقتي الشخصية والسياسية بكل منهم. فذلك أمر صعب في هذه اللحظة بالذات. وهذا أمر طبيعي بلا جدال. سأجاوز هذا الأمر لأقول، ببساطة ومن دون بلاغة، إنني افتقدت بغياهم جزءاً مني، جزءاً من سيرتي الفكرية والسياسية، جزءاً من وطني ومن علاقتي العميقة المشتركة معهم بالوطن اللبناني، وطن اللبنانيين جميعاً من كل الأطياف ومن كل الأفكار ومن كل الأهواء ومن كل الحالات التي يتميز فيها كل الناس الأحرار.

أذكرهم فرداً فرداً، رمزاً رمزاً، فكراً فكراً. أذكرهم في أنماط للعيش متعددة، متميزة، متفارقة، متجانسة في عشق الحرية، وفي شوق الإنسان لديهم، في توفقه، من دون شروط للمستقبل، في وطن حر سيد، وطن لا تحكمه أو تحكم فيه أحكام ضد إرادته من داخله أو من خارجه، قسراً وبإكراه لا يقبله الحق ولا يقبله العدل ولا تقبله الإنسانية. أذكر فيهم وجعي. أذكر فيهم أملي. أذكر فيهم وطني النازف حتى أعماق الروح.

يا وطني اللبناني

أقسم باسم رفاقي، ممن ودعنا بالأمس، وممن ودعنا من قبل الأمس، أقسم باسم رموز الزمن

الماضي ورموز الزمن الحالي ورموز الزمن الآتي،

أقسم باسم رفاقي في الموت وفي القتل وفي الخطف وفي الظلم، وباسم الشعب الحر السيد، شعبي، باسم شعوب الأرض المظلومة وغير المظلومة لكن غير الظالمة، أقسم أنني اخترت لأهلي من كل الأجيال، اخترت لهم بالوعي الصادق، ولكل اللبنانيين، اخترت الوطن اللبناني وطناً من دون

شروط في الضد وفي الحقد، وفي التقديس وفي التكفير، وفي التخوين، وطناً من دون وسائط من كل الأنواع، وطناً من دون خرائط، فيما يبدو كالأوطان المزروعة عسفاً، قسراً، كرهاً في الوطن الواحد، ضد بنيان الأوطان، كل الأوطان، إلا وطني لبنان.

أقسم أنني اخترت لكل اللبنانيين وطناً من بين الأوطان جميعاً، وطناً لشباب بلادي، ولأولادي ولأحفادي ولآبائي ولأجدادي، وطناً لشيوخ بلادي من كل الأعمار ومن كل الآفاق ومن كل الأطياف، وطناً لا يعرف زمناً لبدايته أو زمناً لنهايته، أو زمناً لشفاء جراحات ما زالت تنتزف فيه من دون توقف.

اسمح لي يا وطني، باسم رفاق قد ودعناهم بالأمس، خصوصاً، اسمح لي أن أعلن للعالم في أعلى صوتي المجروح المبحوح أنني قد أرهقني التعب، وأرقتني التفكير بمستقبل أولادي وبمستقبل أولاد بلادي.

ولأنني ما زلت أتابع سفري الدائم خلف نعوش رفاق قد ذهبوا منذ بدايات التاريخ، ورفاق قد ذهبوا قبل نهايات التاريخ، اسمح لي يا وطني أن أعلن أنني أرقتني الأمل وأرهقني ما أنتظر وما ينتظر بلادي فيما تنعم فيه جميع الأوطان.

ولأنني أقترب سريعاً مما يعتبر لدى الإنسان نهايات العمر، ولا يأتي ما أنتظر، ومن أنتظر لشباب بلادي ولهذا الوطن الآتي من قلب التاريخ، والذاهب في عمق القادم من تاريخ العالم، اسمح لي يا وطني أن أرثي باسمك من ودعنا في هذه الأيام الصعبة، أيام الفتن النائمة، وأيام الموت وأيام القتل ولا فرق.

اسمح لي أن أعلن باسمي، باسم الأحلام المتكسرة، وباسم الأحلام المستنفرة، برغم مرارات الأعوام الماضية، وبرغم تجارينا فيها، الخاسرة بدور منا وبأدوار أخرى خارجة عنا، باسم الآمال الآتية إلينا م قلب المستقبل، اسمح لي أن أعلن أنني لن أترك أهلي في وطني إلا وأنا معهم في الدرب إلى مستقبل زمن، في وطن تزدهر الحرية فيه، وتنتعش الآمال الحائرة، وينهار جدار الظلم وينتصر الوطن على جلاديه.

لكني، وأنا في لحظة وداع رفاقي في الحق وفي الحرية، رفاقي في الوطنية، رفاقي في الأمل الآتي حتماً بالحرية، أرجو أن يفهم أخواني في كل البلدان العربية، أن اللبناني عريق في حب الحرية منذ بدايات التاريخ، وأن له الحق بأن يلقى منهم غير التصنيف المستغرب في باب ال تخوين وتكفير المختلف، من حق اللبناني بأن تحترم خياراته ونضالاته، وبأن يعطى فرصة عيش، وهو الساهر أبداً

منذ بدايات الحروب العربية، لحرية شعب فلسطين، الساهر من دون شروط أو منة، البازل أقصى ما في طاقتة من حب فلسطين، وللبنان ولكل بلاد العرب وللحرية.